التصدي البابلي للغزو الحيثي
قراءة جديدة

د. عدنان حميد طه
كلية التربية - جامعة تكريت

بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنْ الرَحِيمْ

تعرض العراق عبر مراحل التاريخ إلى غزوات وتحديات عديدة الهدف منها الاستحواذ على ثرواته المادية والحضارية وكانت تأتي من وراء الحدود الشرقية أو الشمالية وتمثلت تلك الغزوات والتحديات في العصور القديمة كما يلي[١]:-

١- الغزو الكوتي (٢٢١١-٢١٢٠ ق.م).
٢- الغزو الحيثي (القرن السادس عشر ق.م).
٣- الغزو الكيشي (١٥٩٥-١١٥٧ ق.م).
٤- الغزو العيلامي (القرن الثاني عشر ق.م).
٥- الغزو الفارسي الأخميني (٥٣٩-٣٣١ ق.م).
٦- الغزو المقدوني والسلوقي (٣٣١-١٢٦ ق.م).
٧- الغزو الفارسي الفرثي (١٢٦ق.م-٢٢٦م).
٨- الغزو الفارسي الساساني (٢٢٦-٦٣٧ م).

وقد تصدى العراقيون عبر هذه المراحل التاريخية الطويلة إلى تلك التحديات بقوة أثارت اعجاب الذين فصّلوا في ذلك واسهبوا فيه من الباحثين. وبذلك حافظوا على وحدة أرض العراق وحضارته ومقومات كيانه الاجتماعي والثقافي. ولهذه الغزوات والتحديات اسباب وعوامل عديدة واهمها اسباب حضارية[٢]:

١- العامل الاقتصادي، ويتمثل بكثرة الخيرات في العراق. فوفرة الاراضي الخصبة وكثرة المياه حيث دجلة والفرات وروافدهما من المصادر المائية الكبيرة عوامل ساعدت على وفرة الغلة وكثرة الانتاج الزراعي والحيواني وتنوعه.

٢- حضاريا، كان العراق ولا يزال موطن الحضارة الانسانية الأولى والابداع واسهم في التقدم الحضاري مما أثار طمع وحسد الأمم والشعوب المجاورة له.

٣- أما جغرافيا، فموقع العراق الاستراتيجي جعله ذا اهمية خاصة اقتصاديا وعسكريا. فمن خلاله تمر معظم الطرق التجارية وطرق المواصلات المهمة القادمة من الشرق إلى الغرب حيث تقع الموانئ على شواطئ البحر المتوسط أو بالعكس ومن خلاله تمر الطرق القادمة من البحر المتوسط شمالا إلى البحر العربي جنوبا عبر الخليج العربي والذي منه يكون الاتجاه نحو دول المشرق.

٤- ومن العوامل أيضا كون العراق محاط من جهة الشرق وجهة الشمال بشعوب ليس من أصل جزري (سامي). كما انها لم تبلغ المستوى الذي بلغه العراق حضاريا واقتصاديا وهكذا كان ذالك سببا في غزو هذه الشعوب للعراق.

أما فيما يخص الحيثيين، موضوع بحثنا هذا، فهم من الاقوام الهندو–أوروبية موطنها الاصلي جوار بحر قزوين وجنوب روسيا وقد استوطنت في حوض نهر الهاليس (قزيل ايرمق) في بلاد الاناضول (تركيا). وفي حدود سنة ١٨٠٠ ق.م أسس الحيثيون دولة لهم عاصمتها حاتوشاش (خاتوشا) تعرف اطلالها اليوم باسم بوغازكوى وهي تبعد حوالي تسعين ميلا شرق انقرة[٣].

هجم الملك الحيثي مورشيليش (مور شيلي ألاول) على سوريا حوالي عام ١٥٩٥ ق.م. واحتل مدينة حلب فخربها، بعدها اتجه جنوبا على طول نهر الفرات ووصل مدينة ماري الواقعة على هذا النهر، عند الحدود السورية – العراقية. ثم انحدر نحو بابل واستولى عليها في عهد آخر ملوك سلالة بابل الأولى المسمى سمسو – ديتانا (١٦٢٥ – ١٥٩٥ ق. م.)[٤] من أحفاد الملك البابلي حمورابي. فعمل فيها الخراب والدمار ونهب كنوزها وأخذ الغنائم.

لم يعط الباحثون اية معلومات عن ملابسات وتفاصيل هذا الحدث التاريخي المهم حقه من البحث. والأمر الغامض عن الغزو الحيثي لبابل ان الحيثيين لم يبقوا في البلاد طويلا بل انسحبوا بسرعة مذهلة لاسباب لا يزال يجهلها الباحثون. وقد استمر بقاؤهم مدة عامين وهي فترة قصيرة جدا مقارنة بالغزوات السابقة واللاحقة التي تعرض لها العراق. اغتنم الكشيون الفراغ الحاصل بعد هذا الانسحاب ،والكشيون هم غرباء اصلهم من وراء سلسلة جبال زاجروس الايرانية وكانو متواجدين في بلاد بابل كفعلة وعمال، فأخذوا السلطة بسهولة خاصة لانهم كانوا قد شكلوا في منطقة أعالي الفرات كيانا سياسيا ولهم ملوك محليون في عانة. أسس هؤلاء الكشيون سلالتهم الحاكمة في بابل التي سميت بسلالة بابل الثالثة(١٥٩٥-١١٥٧ق.م).

من المعلومات المتوفرة عن هذا الغزو هو ان من بين الغنائم التي أخذها الحيثيون من بابل كان تمثال الاله مردوخ وهو الاله القومي للبابليين وتمثال زوجته صربانيتم. ولا نعرف سبب عدم نقلها إلى عاصمتهم فقد تركوها في مملكة أو مدينة خانة (عانة) على نهر الفرات وهم في طريق عودتهم إلى بلادهم[٥]. وقد أرجعها فيما بعد من خانة إلى بابل عام ١٥٩٥ق.م الملك الكشي اكوم الثاني الملقب اكوم كاكريمة حوالي (١٦٠٢-١٥٨٥ ق. م.)[٦].

يمكننا ان نفترض ان سبب نقل الحيثيين لتمثالي هذين الالهين معهم عند عودتهم إلى بلادهم هو رغبتهم في نقل عبادة هذا الاله البابلي وزوجته إلى بلادهم. ويمكننا كذلك ان نفترض العكس، أي ان السبب هو محاولة القضاء على الرموز الدينية والثقافية التي توحد العراقيين. وذلك كما حدث لمسلة قانون الملك البابلي الشهير حمورابي والتي نقلها المحتلون العيلاميون عام ١١٥٧ ق.م إلى عاصمتهم سوسه أو (شوشه) في ايران، حيث اكتشفتها بعثة التنقيبات الأثرية الفرنسية في هذه المدينة عام ١٩٠٤ ونقلت الى متحف اللوفر في باريس ولا تزال هناك. وكما حدث للاثار المصرية التي نقلها نابليون إلى فرنسا، ويحدث نفس الشيء اليوم في العراق حيث تعرضت اثاره للنهب والتدمير وهربت الكثير منها الى خارج العراق. فاذا أخذنا بنظر الاعتبار اهمية بابل وعظمتها في الألف الثاني قبل الميلاد في مختلف مجالات الحياة وخاصة في النشاطات الحضارية المختلفة سنجد ان سبب رغبة الحيثيين في نقل عبادة مردوخ

وزوجته إلى بلادهم هو اهمية الديانة البابلية ومكانتها المتميزة حتى عند الاقوام غير الجزرية (غير السامية) مثل الحيثيين.

أما بخصوص سبب عدم بقاء الحيثيين في بلاد بابل طويلا وتركهم لها بسرعة، فيعتقد البعض ان ذلك كان بسبب مؤامرة او تمرد حصل في البلاط الحيثي. ان هذا الاعتقاد لا يمكن الاستسلام له كليا اذا اخذنا ما يلي بنظر الاعتبار : يذكر جرني ، المتخصص في دراسة تاريخ الحيثيين[٧]، ان حالة عدم الاستقرار والمؤامرات في الدولة الحيثية بدأت في عهد الملك حاتوشيليش سلف الملك مورشيليش الذي غزا بابل وان امراء البيت المالك الحيثي ثاروا في عهد حاتوشيليش الذي تمكن من سحق هذه الثورة او هذا التمرد. ويرى ان هذه الحالة كانت سمة العائلة المالكة واستمرت في العهود اللاحقة. كما ان جرني لم يذكر ان مورشيليش غادر بابل عائدا إلى العاصمة الحيثية لوجود مؤامرة او تمرد لأنه لا توجد مخطوطة أو نص يؤكد ذلك. ويعتقد بعض الباحثين[٨] ان مورشيليش قتل بعد حوالي سنة أو أكثر من بعد عودته من بابل، أي ان المؤامرة التي قتل فيها كانت قد حدثت بعد رجوعه بما يقارب العام وربما اكثر من عام ويعتقد اخرون انه قتل بعد حوالي عشرين سنة من تاريخ عودته من بابل[٩]. وعليه يتضح لنا انه لم يكن لانسحابه من بابل علاقة بحدوث هذه المؤامرة. وحتى لو كانت فعلا قد حدثت مؤامرة في العاصمة الحيثية اثناء وجود مورشيليش في بابل فربما لا يكون ذلك سببا وحيدا للانسحاب منها لجسامة امر دخول بابل وغزوها واهميته بعد ان قطع كل هذه المسافة الطويلة ليصل اليها مع جيشه، خاصة وانه من المعتقد انه كان يتوقع حدوث مثل هذه المؤامرة بعد ان اصبحت حالة عدم الاستقرار سمة تميزت بها العائلة المالكة. اضافة إلى كل ذلك انه من المفترض ان لا يهتم الحيثيون بالغنائم فيما لو كان انسحابهم بسبب مؤامرة أو تمرد حدث في عاصمتهم رجعوا لتلافي نتائجه السيئة. لكننا نجدهم قد حملوا معهم غنائم كثيرة ومتنوعة ومن ضمنها تمثال الاله مردوخ وتمثال زوجته صربانيتم[١٠].

هناك من يحتمل تحالف الكشيين، الذين اشرنا اليهم أعلاه، مع الحيثيين لاسقاط السلالة البابلية الحاكمة وتمهيد السبيل لتأسيس كيان كشي ثم انسحاب الحيثيين[١١]. ويمكن ان نحتمل العكس أي ان الكشيين تعاونوا مع البابليين في التصدي للحيثيين. ومما يدعم احتمال

هذا التعاون في التصدي والمقاومة هو سياسة التعايش والتعاون والسلام خلال عهد الحكم الكشي الطويل، فلم نسمع عن ثورة او تمرد. ومما يدعم هذا الاحتمال كذلك عمليات البناء والعمران التي انجزها الكشيون مثل تشييد معبد عشتار في الوركاء وبناء عاصمتهم الجديدة كوريكالزو(عقرقوف الحالية) وعمل التماثيل المجسمة[١٢] والاهتمام الحضاري والثقافي الذي انجزه الكشيون في البلاد البابلية، هذا بالاضافة إلى طول عهد حكم الكشيين في البلاد البابلية الذي استمر اكثر من اربعة قرون.

وعليه يمكن الافتراض ان تصدى العراقيين ومن ضمنهم الكشيون، والذين استوطنوا بلاد بابل والذين كانت علاقتهم طيبة مع السكان المحليين، للحيثيين كان كبيرا وبسالتهم العسكرية في مقاومة هذا الغزو اجبر الحيثيين على ترك البلاد. وهذا الافتراض يؤخذ بنظر الاعتبار حتى لو وجدت مؤامرة في العاصمة الحيثية حاتوشاش ويمكن ان نتصور قوة وعظمة هذا التصدي فيما لو افترضنا ان سبب ترك الحيثيين لتمثال الاله مردوخ وتمثال زوجته في مدينة خانه وهم في طريق عودتهم إلى عاصمتهم الحيثية هو ان المقاومة المحلية في بلاد بابل كانت قوية وقد طاردت فلول القوات الحيثية المتراجعة على طول نهر الفرات مما جعل نقل هذين التمثالين وغنائم اخرى من الاعمال المجهدة لقواتهم العسكرية المندحرة المتعبة. هذا الافتراض قد يبدو اكثر قبولا فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار ان نقل تمثال الاله القومي لبلاد بابل (مردوخ) وتمثال زوجته إلى خارج البلاد البابلية، كغنائم حرب خاصة، يعد اهانة كبيرة للمقدسات البابلية الدينية ومما يثير الغضب الشديد عند البابليين ويدفعهم إلى المقاومة الشديدة.

فيما يخص اعادة الكشيين لتمثال مردوخ وتمثال زوجته إلى بابل فعلى ما يبدو لنا كان ذلك لاسباب: أهمها كما ذكرنا انفا هو اهمية الديانة البابلية ومكانتها. وجعل انفسهم من المحبين والمحترمين لعبادة الاله مردوخ. ولغرض ارضاء البابليين. وهذا ما يساند رأينا من ان التصدي للحيثيين كان بتعاون الكشيين مع سكان العراق من البابليين حيث استعملوا معهم الدبلوماسية. لقد استغل الكيشيون هذه الرموز الدينية وأعادوها الى بابل وسيطروا عليها بسهولة تحت شعار حبهم للآلهة العراقية القديمة.

مما تقدم نخلص الى القول: ان العراق تعرض للغزو الأجنبي منذ العصور القديمة وتتضح قوة العراقيين وصلابتهم في التصدي لعمليات الغزو هذه بحيث حافظ العراقيون على وحدة العراق ارضا وشعبا وحضارة، بل زادوا في بناء كل أوجه الحياة الحضارية تحديا وردا على المعتدين الطامعين.

الهوامش

١ عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٩٠،ص٥٦،ومابعدها؛ عن هذه الغزوات والتحديات بالتفصيل ينظر كتاب: العراق في التاريخ، تأليف نخبة من الباحثين ،بغداد ١٩٨٣، ص ٧٥-١٨٠ ، ص. ٢٣٥-٢٦٨ ينظر كذلك كتاب: الصراع العراقي الفارسي، تأليف نخبة من الباحثين ،بغداد ١٩٨٣ عن العصور القديمة ص ٢٣-١٢٦.

٢ عامر سليمان، "جوانب من حضارة العراق القديم" في كتاب : العراق في التاريخ، ص ١٨١-٢٣٤ وكذلك ص ٢٦٩-٢٩٠ ينظر كذلك

The Greatness That Was Babylon,London 1966 .Saggs, H.W. ,
وهو يوضح عظمة حضارة العراق القديم وسعة حجمها وتنوعها ،بحيث تم ترجمته من قبل د.عامر سليمان بعنوان : عظمة بابل ، الموصل ١٩٧٩.

٣ طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ٢ ط ٢ ،بغداد ١٩٥٦، ص ٣٥٢ وما بعدها، ينظر كذلك

Gurney, O.R. , **The Hittites**, Baltimore 1954 , PP. 15 ff;
صلاح رشيد الصالحي، المملكة الحثية، بغداد ٢٠١١، ص٩٩ وما بعدها.

٤ ينظر طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١ ط ١ ,بغداد ١٩٧٣، ص ٤٣٣ ينظر كذلك

Hoffner, H.A. (The Hittites and Hurrians) in Wiseman, D.J. ,**Peoples of old Testament Times**, Oxford 1975, PP. 204 ff;

صلاح رشيد الصالحي، المملكة الحثية، بغداد ٢٠١١، ص١٧٢ وما بعدها

٥ طه باقر، المصدر اعلاه ص ٤٣٣ ، ص ٤٥٠ حيث يذكر هذا الحدث ويشير إلى المصدر:

Jensen, P. in Keilshrift Bibliothek III, 1892, PP. 134 ff

ينظر كذلك صلاح رشيد الصالحي، المملكة الحثية، بغداد ٢٠١١،ص١٦٩وما بعدها.

٦ ينظر المصدرين في الملاحظة اعلاه، وينظر كذلك :

Thompson, R. C. (The Kassite Conquest) in Cambridge Ancient History, Vol. 1 ,1923, p. 562

٧ **Gurney, O.R. ,The Hittites, Baltimore 1954, PP. 24 f.**

٨ سامي سعيد الأحمد ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، بغداد ١٩٨٠ ، ص ٢٤٧؛ صلاح رشيد الصالحي، المملكة الحثية، بغداد٢٠١١، ص١٧٧.

٩ توفيق سليمان ، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ، دمشق ١٩٨٥، ص. ٢٧١.

١٠ ينظر

King, L.W. ,A History of Babylon, London 1919 , P. 211.

١١ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١ ص ٤٤٨؛ سامي سعيد الأحمد ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ،بغداد ١٩٨٠، ص ٢٤٧؛ عبد القادر عبد الجبار الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٩٠، ص١٣٢؛ صلاح رشيد الصالحي، المملكة الحثية، بغداد ٢٠١١، ص١٧٢-١٧٥.

١٢ – سامي سعيد الأحمد ،"العصر البابلي القديم" ،في كتاب : العراق في التاريخ ،بغداد ١٩٨٣ ،ص ١٠٣-١٠٦

قائمة المصادر

المصادر العربية:

١. توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب اسية القديمة ، دمشق ١٩٨٥.

٢. سامي سعيد الأحمد، تاريخ الشرق الادنى القديم ، بغداد ١٩٨٠.

٣. سامي سعيد الأحمد، "العصر البابلي القديم" في كتاب: العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣.

٤. صلاح رشيد الصالحي، المملكة الحثية، بغداد ٢٠٠٧.

٥. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ،الجزء الاول ، بغداد ١٩٧٣.

٦. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني ،بغداد ١٩٥٦.

٧. عامر سليمان، "جوانب من حضارة العراق القديم"، في كتاب:العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣.

٨. عبدالقادر عبد الجبار الشيخلي، الوجيز في تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٩٠.

٩. نخبة من الباحثين، العراق في التاريخ ،بغداد ١٩٨٣ ،عن الغزوات والتحديات التي تعرض لها العراق ص٧٥ إلى ١٨٠،ص ٢٣٥ إلى ٢٦٨.

١٠. نخبة من الباحثين، الصراع العراقي الفارسي، بغداد ١٩٨٣ ،عن العصور القديمة ص ٢٣ إلى ١٢٦.

المصادر الاجنبية:

1- Gurney,O.R. ,The Hittites, Baltimore 1954.

2- Hoffner,H.A.(The Hittites and Hurrians) in Wiseman, D.J. ,Peoples of Old Testament Times, Oxford 1975.

3- Jensen,P. in Keilshrift Bibliothek, 3 ,1892.

4- King, L.W. , A History of Babylon , London 1919

5- Saggs,H.W. ,The Greatness That Was Babylon, London 1966.

6- Thompson, R.C. (The Kassite Conquest) in Cambridge Ancient History, vol.1, 1923.